﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: 92]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ إنكارِ نزولِ الوحي، وكونِ القرآنِ منزَّلًا يؤمنُ بهِ المؤمنونَ بالآخرةِ

لمّا ذكر ﷻ وقرَّرَ أنَّ إنكارَ مَن أنكر أن يكون اللّهُ أنزلَ على بشرٍ شيئًا، وحاجَّهم بما لا يَقدِرون على إنكارِه؛ أخبرَ أنَّ هذا الكتابَ الذي أُنزِلَ على الرَّسولِ مباركٌ كثير النَّفع والفائدة"[1]، فلمَّا أبطلَ اللّهُ تعالى قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، "ذكر بعده أنَّ القرآن كتاب اللّه، أنزلَهُ اللّه تعالى على محمَّد ﷺ"[2]، "فمن كان يؤمن بالقيامةِ، فإنَّه يؤمن بهذا الكتاب، والمؤمنون به يحافظون على صلاتِهم، فيؤدُّونها في أوقاتها كاملة مستوفاةً، وقد خُصَّتِ الصَّلاةُ بالذِّكر ههنا؛ لأنَّها عماد الدِّين"[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَارَكٌ﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثباتِ الشَّيءِ، قال الخليلُ: البركةُ من الزِّيادة والنَّماءِ، وهي ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، وسمِّي بذلك لثبوتِ الخير فيه ثبوتَ الماءِ في البركة. والمُبَارَك: ما فيه ذلك الخيرُ، على ذلك: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]؛ تنبيهًا على ما يفيضُ عليهِ من الخيراتِ الإلهيَّة[4]، أي: هو كثيرُ الفوائدِ وجمٌّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/450.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/64.
(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 485.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قدر).

المنافع[1]، وذلك راجعٌ لكونِهِ "بَارَكَهُ اللّهُ أَوْ بَارَكَ فِيهِ، بِمَا فَضَلَ بِهِ مَا قَبْلَهُ مِنَ الكُتُبِ فِي النَّظْمِ والمَعْنَى، وبِمَا يَكُونُ مِنْ ثَبَاتِهِ وبَقَائِهِ إلى آخِرِ عُمُرِ البَشَرِ في الدُّنْيَا، هُوَ مِنَ (البَرَكَةِ) وهِيَ - بالتَّحْرِيكِ - النَّماءُ وَالزِّيادَةُ وَالسَّعَةُ النّافِعَةُ كبِرَكَةِ المَاءِ[2].

2) ﴿مُّصَدِّقُ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشَّيء من قولٍ وغيره، الصِّدقُ: خلافُ الكذبِ، سمِّي لقوَّتِهِ في نفسِهِ، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّة له، والمصدِّقُ: الَّذي يصدِّقُك في حديثك، قوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: مصدِّقٌ ما تقدَّم[3]، قال الشَّاعر:

وَأَكْثَرُ هَذَا النَّاسِ إِمَّا مُكَذِّبٌ *** يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِمَّا مُصَدِّقُ[4]

3) ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: أمُّ القرى: مكَّةُ، وسُمِّيت بذلكَ؛ "لأنَّها منشأُ الدِّين، ولِدَحْوِ الأرضِ منها، ولأنَّها وَسَطُ الأرض، ولكونها قبلةً، وموضعَ الحجِّ، ومكان أوَّلِ بيت وُضعَ للنَّاس"[5]، وقد قيل: إنَّ مكَّة سمِّيت (أمَّ القُرى)، لتقدُّمها أمامَ جميعِها، وجَمْعِها ما سواها[6]، قال الشَّافِعِيُّ رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أمُّ القرى: مكَّة، وهي بلده وبلدُ قومِه، فجعلَهم في كتابِهِ خاصَّةً، وأَدخَلَهم مع المُنْذَرينَ عامَّةً"[7].

4) ﴿يُحَافِظُونَ﴾: (حفظ) أصلٌ يدلُّ على مراعاة الشَّيء، المُحافَظَةُ: المراقبةُ، والحِفْظ يقالُ تارةً لهيئة النَّفس الَّتي بها يثبتُ ما يؤدِّي إليه الفهم، وتارةً لضبط الشَّيء في النَّفس، ويضادُّه النِّسيان، وتارة لاستعمال تلك القوَّة، فيقال: حَفِظْتُ كذا حِفْظًا، ثمَّ يستعمل في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّد ورعاية، قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: 238][8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى ردًّا على نفي المنكرينَ نزولَ الوحي، بأنَّ "هذا القرآنَ كتابٌ أنزلناه عليك - أيُّها النَّبيُّ - وهو كتابٌ مباركٌ مصدِّقٌ لما سبقَهُ منَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ، لتنذرَ به أهلَ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/45، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/172، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/162.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 7/516.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صدق).
(4) محمود الغزنويّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، ص: 488.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/583.
(6) ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن: 1/108.
(7) الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 3/1241.
(8) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حفظ).

مكَّة وسائرَ النَّاسِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، حتَّى يهتدوا، والَّذين يؤمنون بالحياة الآخرة، ويؤمنون بهذا القرآنِ، ويعملون بما فيه، ويحافظون على صلاتِهم، بإقامةِ أركانِها وفروضِها ومستحبَّاتها في أوقاتِها المحدَّدة لها شرعًا"[1].

بيانُ أنَّ القرآنَ منـزَّلٌ لتصديقِ ما قبلَهُ، وهدايةٌ للنَّاسِ بالإيمانِ والعبادةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بينَ الجملتينِ في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾:

عطفَ قولَه تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ على قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، "أي: وقل لهم: اللهُ أنزلَ الكتابَ على موسى، وهذا كتابٌ أنزلناه"[2]، تشريكًا بالأمرِ بالقول وإعلان ذلك، فلمَّا "أثبت سبحانه أنَّه الَّذي أنزلَ التَّوراةَ والإنجيلَ، تكميلًا لإثبات الرِّسالةِ بدليلِ علم اليهودِ دون مَن لا كتابَ لهم، عَطَفَ على ذلك قولَهُ تأكيدًا لإثباتِها وتقريرًا"[3]. وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّها جملةٌ مستأنَفةٌ، "سيقت لتحقيقِ إنزاله تعالى الكتابَ الحميدَ، بعد تحقيق إنزالِ ما نطقَ بهِ، وهو التَّوراةُ، وإظهارًا لكذبهم في مقالتِهم الشَّنيعة"[4].

الدَّلالةُ على أنَّ الآيةَ من ضمنِ ما أُمِرَ الرَّسولُ المُبَلِّغُ بقولِهِ

سرُّ إيثارِ اسمِ الإشارةِ ﴿وَهَٰذَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، آثرَ التَّعبيرَ باسم الإشارة الدَّالِّ على القريبِ؛ "لأنَّ المحاولة في شأنه من ادِّعائِهمْ نفيَ نزوله من عند اللهِ، ومن تبكيتِهم بإنزال التَّوراة، يجعلُ القرآنَ كالحاضر المشاهَدِ، فأتى باسم الإشارة لزيادة تمييزِهِ تقويَةً لحضورِهِ في الأذهان"[5]. والملمح الرُّوحيُّ للقرآن يجعل التَّواصلَ به روحيًّا، ويجعلُ التَّمثُّلَ لعظمة الله صاحبِ هذا الكلام المعجز، من دلائل عظمته

افتتاحُ الكلامِ باسمِ الإشارةِ إلى القرآنِ، فيهِ تفخيمٌ لشأنِ المشارِ إليه

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/139.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/369.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/187.
(4) القونويّ، حاشيّة على البيضاويّ: 8/192.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/369.

ووثاقته وجلالهِ، ممَّا سوف يكون دليلًا على سريانِ روح القرآنِ في القلوبِ، وتمكُّنها من المشاعر، بحيثُ يخاطِب المؤمنُ القرآنَ باسم الإشارة القريب، لقربهِ المعنويِّ، وتدفُّقهِ الرُّوحيِّ الآخذِ بالألبابِ، وقد قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: 2].

وافتتاحُ الكلامِ باسم الإشارةِ، وكونهِ إشارةً إلى القرآن، فيه تفخيمٌ لشأن المشارِ إليه.

الغرضُ من وصفِ الكتابِ بالمُنْزَلِ:

في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أخبر تعالى أنَّهُ أنزلَ الكتابَ، للدَّلالةِ على أنَّه جاء من جهة الوحيِ، فالمقصودُ "أن يُعلم أنَّه من عند الله تعالى، لا من عند الرَّسولِ؛ لأنَّه لايَبْعُدُ أن يَخُصَّ الله محمَّدًا ﷺ، بعلومٍ كثيرةٍ، يتمكَّن بسببها من تركيبِ ألفاظِ القرآنِ، على هذه الصِّفة من الفصاحةِ، فبيَّن تعالى أنَّه ليس الأمر على هذه الصِّفة، وأنَّه تعالى هو الَّذي تولَّى إنزاله بالوحي على لسان جبريلَ عليه السلام"[1]، وإنَّما ناسبَ ذِكْرُ الإنزالِ هنا، لأنَّ السِّياقَ في الحديثِ عن نَفْيِهم إنزالَ الوحي من الله تعالى، فكانَ في هذا التَّصريحِ بالإنزال ردٌّ عليهم.

الإخبارُ بإنزالِ الكتابِ للنَّصِّ على أنَّه من عندِ اللهِ، لا مِن سواهُ

الغرضُ من وصْفِ الكتابِ بأنَّهُ مباركٌ:

إنَّ الكتابَ المنزَّلَ منَ اللهِ تعالى مبارَكٌ بنزولهِ منه، فصفةُ البركة لازمةٌ لما أنزله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ "لأنَّ ما أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى فهو مُبارَكٌ قَطْعًا، فَصارَتِ الصِّفةُ بِكَونِهِ مبارَكًا كأنَّها صفةٌ مُؤَكِّدَةٌ؛ إذ تَضَمَّنها ما قبلها"[2]، فالتَّصريح بِصفةِ البركة مؤكِّدٌ لبركةِ الكتابِ الكريمِ، قال الزَّجّاجُ:

نـصَّ على صفةِ البركـةِ تأكيـدًا للبرَكَةِ المفهومَةِ من تنزيلِ اللهِ تعالى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/64.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.

والمبارَكُ: الَّذي يأتي من قِبَله الخيرُ الكثيرُ، والمعنى: أنزلناهُ للبركةِ والإنذارِ[1]، والسِّياق "يصف القرآنَ بالبركة؛ وأصلُ البركة الثُّبوت، ومنه بروكُ البعيرِ؛ إذا ثَبَتَ واستقرَّ، ومنهُ قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: 1]، أي: ثبتَ لهُ ما يستحقُّه من التَّعظيم والجلالِ، فيما لم يزلْ ولا يزالُ"[2].

علَّةُ تقديمِ صفةِ الإنزالِ على البركةِ:

المناسبُ للسِّياقِ تقديمُ الصِّفةِ الَّتي سيقَ الحديثُ لإثباتِها

قدَّمَ ذِكْرَ الإنزالِ على البركةِ في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ جَرْيًا على اقتضاءِ السِّياقِ، فلمَّا "كان الإنكارُ إنَّما وَقَعَ على الإنزالِ فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقيلَ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ كان تقديمُ وَصْفِهِ بالإنزالِ آكَدَ من وصفِهِ بكونِهِ مباركًا"[3]، فتقديمُ اللَّفظِ الَّذي هو محلُّ النِّزاعِ أَبْلَغُ من تأخيرِهِ، وهذا يريكَ علوَّ بلاغةِ هذا الكتابِ؛ إذ بنى تقديمَ الألفاظِ على أهمِّيَّتِها في السِّياق، وقدَّم وَصْفَهُ بالإنزالِ، على وَصْفِهِ بالبرَكَةِ، بخلاف قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]، قالوا: (لأنَّ الأهمَّ) هنا وَصْفُهُ بالإنزال؛ إذ جاء عقيبَ إنكارِهم أن يُنْزِلَ اللهُ على بَشَرٍ شيئًا، بخلاف هناك. ووقعتِ الصِّفةُ الأولى جُمْلَةً فعليَّة؛ لأنَّ الإنزال يَتَجَدَّدُ وقْتًا فَوَقْتًا، والثَّانية اسمًا صريحًا؛ لأنَّ الاسم يَدُلُّ على الثُّبوت والاسْتِقْرارِ، وهو مقصودٌ هنا، أي: بركتُهُ ثابتةٌ مُستقرَّةٌ[4].

العدولُ عن جعلِ الكتابِ مفعولًا بهِ:

تَكَرُّرُ ذِكْرِ (الكتاب) بلفظِهِ وبضميرِهِ تنويهٌ بعلوِّ شأنِهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾: تكرَّرَ ذِكْرُ الكتاب مرَّتين، صريحًا باسمه ومضمَرًا، وكان يمكنُ التَّعبيرُ بأسلوبٍ آخرَ، كأن يقولَ: (وأنزلنا الكتاب)، ولكنَّه "جعل ﴿كِتَٰبٌ﴾ الَّذي حقُّه أن

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير: 2/54.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/125.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.
(4) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/283.

يكونَ مفعولَ (أنزلنا) مسنَدًا إليهِ، ونصبَ فعلَ (أنزلنا) لضميرِه؛ لإفادةِ تحقيقِ إنزاله بالتَّعبيرِ عنهُ مرَّتين، وذلك كلُّه للتَّنويهِ بشأن هذا الكتاب"[1]، ويضاف إلى ذلك أنَّه عَدَلَ من الجملة الفعليَّة إلى الجملة الاسميَّة، تأكيدًا للمعنى، ودلالةً على ثباتِ تلكَ الصِّفاتِ فيهِ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ عنِ الإنزالِ بالفعلِ وعنِ البركةِ بالاسمِ في الآية:

في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فَرَّقَ تعالى في التَّعبيرِ عن صفتينِ في سياقٍ واحدٍ وجملة واحدة، ولموصوفٍ واحدٍ، فجاءتِ الأولى بصيغةِ الفعل، والثَّانية بصيغةِ الاسم، وذلك بالنَّظرِ إلى واقع الصِّفة، فلمَّا "كان الإنزالُ يتجدَّد عُبِّرَ بالوصفِ الَّذي هو فعلٌ، ولمَّا كانَ وصفُهُ بالبركةِ وصفًا لا يُفارِق؛ عُبِّرَ بالاسمِ الدَّالِّ على الثُّبوتِ"[2].

الإنـزالُ حـادثٌ متجدِّدٌ، والبركةُ وصفٌ ثابتٌ قارٌّ

عِلَّةُ العدولِ عن الظَّاهرِ إلى ضميرِ العظمةِ في قوله: ﴿كِتَبٌ أَنزَلْنَاهُ﴾:

عَدَلَ تعالى ذِكْرُهُ عن إظهارِ اسم الجلالة في قوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، معبِّرًا عن ذاته "بنون العظمة؛ لأنَّها أدلُّ على تَعْظيمِه، فقال: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، أي: وليس من عند محمَّد ﷺ"[3]، أمَّا التَّعبيرُ باسم الجلالة، فهو أدلُّ على المهابةِ والجلالِ، والسِّياق في التَّعظيم، والمناسب له نون العظمة، فَعَدَلَ إليهِ تعظيمًا لشأنِ الكتابِ المنزَلِ منَ اللهِ تعالى.

أسندَ الإنزالَ إلى ضميرِ العظمَةِ، لمناسبةِ التَّعظيم والتَّفخيم لِقَدْرِ الكتابِ

إيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾، دون تعلُّقِهِ بحرف جرٍّ:

أُوثرَ وصفُ الكتابِ بالبركةِ على وجهِ الإطلاقِ بلا تقييدٍ بحرفِ جرٍّ، فلم يقلْ: (مبارك فيه، أو به، أو عليه)؛ لأنَّ "قولهم (بارك فيه)، إنَّما يتعلَّق ما كانتِ البركةُ حاصلةً للغير في زمنه أو مكانه، وأمَّا (باركه) فيتعلَّقُ بهِ ما كانت البركةُ صفةً له، و(بارك عليه)

القـرآنُ مبـاركٌ لـدلالـتِـهِ على الخيرِ العظيمِ، وهدايتِهِ للطَّريقِ المستقيمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/369.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/187.

جعل البركةَ متمكِّنةً منه، (وبارك له) جعل أشياءَ مباركةً لأجله، أي: باركَ فيما له. والقرآنُ مباركٌ؛ لأنَّه يدلُّ على الخير العظيم، فالبركةُ كائنةٌ به، فكأنَّ البركةَ جُعِلَتْ في ألفاظه، ولأنَّ الله تعالى قد أودعَ فيه بركة، لقارئهِ المشتغلِ به، بركةً في الدُّنيا وفي الآخرة، ولأنَّه مشتمِلٌ على ما في العمل بهِ كمالُ النَّفس وطهارتُها بالمعارف النَّظريَّة ثمَّ العمليَّة، فكانت البركةُ ملازمةً لقراءته وفُهومِهِ"[1]، فجاء وصفُهُ بالبركةِ مطلَقًا للدَّلالة على أنَّ البركةَ صفةٌ ثابتةٌ دائمةٌ حالَّةٌ فيه.

وجهُ الإخبارِ عن لفظِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ بقولهِ: ﴿مُّصَدِّقُ﴾ دون عاطفٍ:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أخبارٌ متعدِّدةٌ عن مسنَدٍ واحدٍ، فقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ﴾ "خبرٌ عن كتابٍ بدونِ عطفٍ"[2]، فتعدَّد الخبرُ بلا عطفٍ، فلمْ يَقُلْ: (وهذا كتابٌ أنزلناهُ مُباركٌ ومُصدِّقٌ)؛ لأنَّ ترْكَ العطفِ في تعدُّدِ الأخبارِ أبلغُ وآثرُ من العطف؛ لأنَّ الخبرَ أحدُ ركنَي الجملة الأساسيَّين، والإخبارُ بأنَّ الكتاب منزَّلٌ لايقلُّ أهمِّيَّةً عن كونِهِ مباركًا، والإخبارُ بكونهِ صادقًا ليس بأقلَّ أهمِّيَّةً من ذلك، فالأخبارُ تلك على مستوًى واحدٍ من الأهمِّيَّة، والعطف يُذهِبُ تلكَ الأهمِّيَّةَ؛ لأنَّ العطفَ فضلةٌ تابعٌ يمكنُ الاستغناءُ عنهُ، ولم يكن قوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ﴾ صفةً؛ لأنَّ غاية الصِّفة التَّفريقُ بين اسمين متَّفقين في الاسميَّة، ولكنَّهما اختلفا بالصِّفة، فلو كان ﴿مُّصَدِّقُ﴾ صفةً لكان المرادُ وصفَ الكتاب المنزَلِ من الله تعالى، ليباين كتابًا آخر، وهذا ليس المعنى المرادُ في الآية، فهي مساقةٌ للإخبار عن الكتابِ ببركتهِ وكونِهِ منزَّلًا من اللهِ تعالى، وكونِهِ مُصَدِّقًا لما جاء قبله من الكُتبِ. وفي الخبرِ - أيضًا- فائدةٌ

تَـرْكُ العطفِ في تـعـدُّد الأخـبـارِ أبلغُ منَ العطفِ

(1) ابن عاشور، التّحريروالتّنوير: 7/369 - 370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/370.

للسَّامعِ بشيءٍ كان يجهلُه، فنبَّههم بذلكَ على أنَّ الكتابَ متضمِّنٌ تعاليمَ الرِّسالاتِ السَّابقة؛ ليَؤولَ الكلامُ أخيرًا إلى نفي كونهِ بِدْعًا من الرُّسلِ؛ ردًّا على تكذيبهم إنزالَ اللهِ تعالى للوحي، قائلينَ فيما ذكره القرآن: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

وجهُ تصديقِ القرآنِ للكتبِ السَّابقةِ بقوله: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

أخبرَ تعالى في قوله: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، عن تصديقِ القرآنِ لما قبلَه منَ الكتبِ المنزَّلةِ، يعني: أنَّه موافقٌ لما فيها[1]؛ وذلك من وجهيَن: "**أحدُهما**: أنَّ في هذه الكتب الوعدَ بمجيء الرَّسول المقفَّى على نبوءةِ أصحاب تلك الكتبِ، فمجيءُ القرآن قد أظهر صدقَ ما وعدتْ به تلك الكتبُ، ودلَّ على أنَّها من عندِ اللهِ. **وثانيهما**: أنَّ القرآنَ مُصَدِّقٌ أنبيائها، وصَدَّقَها وذَكَر نورَها وهُداها، وجاء بما جاءت بهِ من أصولِ الدِّين والشَّريعةِ"[2].

القرآنُ أظهرَ صِدْقَ الكتبِ السَّماويَّةِ، وأنَّها من عندِ اللهِ يقينًا

التَّعبيرُ بالموصولِ المفردِ في قوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ عن الكتب:

يدلُّ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ على المفرد، ولكنَّه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، يرادُ بهِ معنى الجمعِ، ولكنَّهُ لم يقل: (الَّذينَ)؛ لأنَّه لا يستعمل إلَّا مع العاقل أو شبهه، نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾؛ لتنزيل الأصنام منزلةَ العاقل، أمَّا جمع غير العاقل؛ فلا يستعمل إلَّا الَّذي للمفرد[3]، فجاء استعمال الَّذي للدَّلالةِ على الجمع؛ لأنَّهُ غير عاقل.

الكتبُ المنزَّلةُ جَمْعٌ لغيرِ العاقلِ

إيثارُ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِى﴾ دون (ما):

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، عبَّرَ بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ دون الموصولِ (ما)، فلم يقل: (ما بين يديه)؛ لأنَّها كتبٌ

الكتب المُنَزَّلةُ بين يدي القرآن، كلٌّ منها معهودٌ معروفٌ محدَّدٌ

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 2/135.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/370 - 371.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/370.

معهودةٌ معروفةٌ معيَّنة، ولا يراد العموم المدلولُ عليه بالموصولِ (ما)، إذ لا اقتضاءَ له.

التَّعبيرُ عنِ الكتبِ السَّابقةِ بقولهِ تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

التَّوراةُ والإنجيلُ آخرُ ما تداولَهُ النَّاسُ بينَ يدي الإسلامِ

المرادُ بقولهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الدَّلالةُ على ما تقدَّم وسبقَ، وكلُّ ما كان بين اليدين، فهو ما تقدَّمَ[1]، ويعني هنا: "ما تقدَّمه من كتب الأنبياء، وأخصُّها التَّوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ، لأنَّهَا آخرُ ما تداوله النَّاس منَ الكتبِ المنزَّلةِ على الأنبياء، وهو مصدِّقُ الكتبِ النَّازلة قبلَ هذه الثَّلاثةِ، وهي صحفُ إبراهيمَ وموسى"[2]، فعبَّر بقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ للدَّلالة على أقربِ ما سبقَه بالأخصِّ، ولو قال: (ما قبله)؛ لكان عامًّا، ولَفاتَ ذلك التَّخصيصُ.

بلاغةُ العطْفِ بين الجملتَينِ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ﴾ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾:

تكثيرُ الصِّفاتِ إيماءٌ إلى علوِّ الشَّأنِ ورفعةِ القَدْرِ

عطفَ الإنذارَ المفهومَ من قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ على التَّبريكِ والتَّصديقِ المفهومَيْنِ من قوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ﴾، فكأنَّهُ قال: أنزلناهُ للبركاتِ، ولتصديق ما تقدَّمه من الكتب وللإنذار[3]، وفي العطفِ دلالةٌ على أنَّه مشارٌ إليه بهذه الصِّفات الثَّلاثِ، وفي تكثيرِ الصِّفاتِ إيماءٌ إلى علوِّ الشَّأن.

بلاغةُ استعارةِ لفظِ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾:

مكَّـةُ أصـلُ القُرى؛ لأنَّ لفظ الأُمِّ يُستعارُ للأصلِ والمرجعِ

سُمِّيتْ مكَّةُ بأمِّ القرى في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ "لأنَّهَا مكانُ أوَّلِ بيتٍ وُضِعَ للنَّاس، ولأنَّها قبلةُ أهل القُرى كلِّها ومحجُّهم، ولأنَّها أعظم القرى شأنًا"[4]، وليس للقرى أمٌّ ولا بنتٌ، وإنَّما ذلك على سبيلِ الاستعارة؛ والتَّعبيرُ بـ (أُمِّ) للأشياءِ "استعارةٌ شائعة في

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 4/95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/370.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/45، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/162.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/45، وينظر: أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2589.

الأمر الَّذي يُرجعُ إليه، ويلتفُّ حوله، وحقيقةُ الأمِّ الأنثى الَّتي تلد الطِّفل، فيرجعُ الولد إليها، ويلازمُها، وشاعتِ استعارة الأمُّ للأصلِ والمرجع، حتَّى صارت حقيقةً، ومنه سمِّيتِ الرَّايةُ: أمًّا، وسمِّي أعلى الرَّأس: أمَّ الرَّأس، والفاتحة: أمَّ القرآن"[1].

مجازُ الحذفِ بذِكْرِ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وإرادةِ أهلِها:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، وقع الإنذارُ على مكَّة، والمرادُ إنذار أهلها[2]؛ لأنَّ القرى لا تُنذَر، وإنَّما يُنذر أهلُها، ولكنَّهُ "حذف (أهل) لدلالة المعنى عليه؛ لأنَّ الأبنيةَ لا تُنْذَر كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ لأنَّ القريةَ لا تسألُ"[3]، وهذا الحذف يفيدُ الإيجازَ، وهو مجازٌ، فذكر المكان، وأرادَ الحالَّ فيه، "وإطلاقُ المكان وإرادةُ أهله، هذا كثيرٌ في القرآن، ومن ذلك قولهُ تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [اقرأ: 17]، وما كانتِ البقعُ والمباني لتنذرَ إنَّما ينذرُ أهلها"[4].

ذكرَ أمَّ القرى، وأرادَ أهلها بحذفِ المضافِ إليه، وإقامةِ المضافِ مقامهُ إيجازًا

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ دون (مكَّة):

آثر النظم القُرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ لأنَّه الاسمُ الَّذي يُنْبِئُ "عن كونها أعظمَ القرى شأنًا وقِبْلةً لأهلها قاطبةً، إيذانًا بأنَّ إنذارَ أهلِها أصلٌ مستتبِعٌ، لإنذار أهلِ الأرض كافَّةً"[5]، فآثَرَهُ لما فيه من دلالة على التَّعظيم، وهو أنسبُ بالسِّياق؛ إذ هي مذكورةٌ تبعًا للإنذار بالكتاب المنزَّل المباركِ، "وأُمَّ الْقُرى مكَّة، سُمِّيتْ بذلك لوجوهٍ منها: أنَّها منشأُ الدِّين والشَّرع، ومنها ما رُوي أنَّ الأرض منها دُحِيَتْ، ومنها أنَّها وَسَطُ الأرض، وكالنُّقطة للقُرى، ومنها ما لَحِق عن الشَّرع من أنَّها قبلةُ كلِّ قريةٍ، فهي لهذا كلِّه أمٌّ، وسائرُ

مـكَّـةُ أعـظـمُ الـقُـرى، ولـها أثـرٌ عميقٌ فيما حولها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/372، وينظر: الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/488.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/65، وينظر: القنّوجيّ، فتح البيان: 4/193.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/583.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2589.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/162، وينظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/188، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/193.

القرى بناتٌ، وتقدير الآية: لِتُنذرَ أهلَ أمِّ القرى، وَمَنْ حَوْلَها يريد أهل سائر الأرض"[1].

الدَّلالةُ على عمومِ الرِّسالة وخصوصِها في قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

القيدُ بالمكان لا يقتضي اقتصارَ دعـوتـهِ على أهلهِ؛ بل يعمُّ الأرضَ كلَّها

قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ذَكرَ فيه قيدَيْن للإنذار، كونُه لأمِّ القرى، وللَّذين حولها، ولم يقل في هذا السِّياق: (لتنذر العالَمين)، بل خَصَّ بالذِّكر مكَّةَ، لأنَّ الجدال وقع مع أهلها، وقد زعم اليهودُ اختصاصَ الإنذار ببلاد العرب، بناءً على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وقد أجاب المفسِّرون عن ذلك، بأنَّ "تخصيص هذه المواضع بالذِّكر لا يدلُّ على انتفاء الحكم فيما سواها إلَّا بدلالة المفهوم، وهي ضعيفةٌ، لا سيَّما وقد ثبت بالتَّواتُرِ الظَّاهرِ المقطوعِ به من دين محمَّدٍ ﷺ أنَّه كان يدَّعي كونه رسولًا إلى كلِّ العالمين، وأيضًا قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، يتناول جميعَ البلاد والقرى المحيطةِ بها، وبهذا التَّقدير: فيدخل فيه جميعُ بلاد العالم"[2].

توجيهُ القراءةِ بصيغةِ الغائبِ في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾:

إسنادُ الإنذارِ إلى القـرآنِ تفخيمٌ لشأنِ القرآنِ

جاءتِ الرِّوايةُ عن عاصمٍ عن طريق شعبةَ بالقراءة بصيغة الغائب (لِيُنْذِرَ)، فقد "جعل الكتاب هو المنذِر؛ لأنَّ فيه إنذارًا، ألا ترى أنَّه قال: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ فلا يمتنعُ إسنادُ الإنذار إليه على سبيل الاتِّساع. وأمَّا الباقون؛ فإنَّهم قرؤُوا: ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ بالتَّاء خطابًا للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ المأمور والموصوفَ بالإنذارِ هو، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ [الرعد: 7]"[3]، فالإنذارُ غايةٌ لإنزال الكتاب المبارَك، وإسنادُه إلى القرآن في رواية شعبة، فيه تفخيمٌ لشأن القرآن؛ إذ حوَّله من كونه

(1) ابن عطيّة الأندلسّي، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 2/322.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/583، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/193.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/66، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.

كتابًا محصورًا بين دفَّتين، إلى مَن يزاول الإنذار بنفسه، وهذا ليس بمخالفٍ للواقع، إذ إنَّ القرآن يحمل رسالته لكلِّ من يتلوه ويتدبَّره، فأسندَ "الإنذارَ إلى الكتاب مجازًا؛ لأنَّه سببُ الإنذار"[1].

سرُّ الاقتصارِ على الإنذارِ في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

ترهيبُ المنكرينَ بالإنذارِ الشَّامل لكلِّ البقاع

قد جَرَتْ عادةُ القرآن، أن يقرنَ بينَ الإنذار والتَّبشير، ولكنَّه في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، اقتصر على الإنذار وحده؛ "لأنَّ المقصودَ تخويفُ المشركين إذ قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾"[2].

دلالةُ إيجازِ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

دلَّ إيجازُ الإنذارِ على شمولِه لكلِّ المنكِرين الكفَّار

في قولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، عبَّر بألفاظٍ قليلةٍ عن جميع "القبائل القاطِنَةِ حول مكَّةَ مثلِ خُزاعة، وسعد بن بكر، وهوازن، وثَقيفٍ، وكِنانة"[3]، ثم لا تقفُ دلالةُ التَّعبير على هذه القبائل وحسب، بل تشملُ "أهلَ سائر الأرض"[4]، وهذا من إيجازِ القَصْرِ؛ حيثُ يدلُّ قليل اللَّفظ على كثير المعنى.

بلاغةُ الاحتراسِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾:

أهـلُ الإيـمـانِ بـالـقـرآنِ قـومٌ لـهـم الـبـشـارةُ دونَ الإنذارِ

أخبرَ تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عن إيمانِ المؤمنين بعد ذكرِ الإنذار، إذ في ذلك "احتراسٌ من شمول الإنذارِ للمؤمنين الَّذين هم يومئذٍ بمكَّة وحولها، المعروفون بهذه الصِّلة دون غيرهم، من أهل مكَّةَ ... وأخبر عن المؤمنين بأنَّهم يؤمنونَ بالقرآن، تعريضًا بأنَّهم غيرُ مقصودين بالإنذار، فيُعلم أنَّهم أحقَّاء بضدِّه، وهو البشارةُ"[5].

(1) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/120.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/372.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/372.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/372 - 373.

دلالةُ الواوِ في جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

بـيـانُ حـالِ المـؤمـنـينَ، والثَّناءُ عليهم، ونفيُ شمولهم بالإنذارِ

دلَّتِ (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾، على الاستئنافِ لبيان حال المؤمنين من الإنذارِ، حيث "ابتدأ ﷻ، بمدحِ وصفهم، وأخبرَ عنهم: أنَّهم يؤمنون بالآخرة والبعثِ والنُّشور"[1]، والغرضُ من ذلك التَّعريضُ بأنَّهم غير مقصودينَ بالإنذار؛ فيُدرَك أنَّهم أحقَّاء بالبشارة، جزاء إيمانِهم بما نزل من عند الله، والله لا يظلم النَّاسَ شيئًا، ولكنَّ النَّاس أنفسهم يظلمون[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الإخبارُ عنِ المؤمنينَ بالموصولِ تمييزٌ لهم عن أهلِ الشِّرك

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾، عبَّر عن المؤمنين بالموصول والصِّلة دون الوصفِ؛ فلم يقل: (والمؤمنون يؤمنون به)؛ لأنَّ هذا الموصولَ مع صلته "كاللَّقَب لهم، وهو مميِّزُهم عن أهل الشِّرك؛ لأنَّ أهلَ الشِّرك أنكروا الآخرة"[3].

إيثارُ صيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾:

المؤمنون لا ينقطعُ إيمانُهُم، لثباتِهم على الهُدى

في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾، عبَّر عن إيمان المؤمنين بالفعلِ المضارع الدَّالِّ على التَّجدُّدِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مستمرُّون بالإيمان ثابتون عليه؛ لأنَّه في معرض الثَّناء عليهم، فبيَّن بالمضارع إصرارَهم وقوَّةَ ثباتهم على إيمانهم، فبذلكَ استحقُّوا الاستثناءَ من الإنذار.

تلازمُ الإيمانِ بالآخرةِ وبالقرآنِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾:

ما في القرآنِ من مشاهدِ الآخرةِ يصوِّرها وكأنَّها بارزةٌ حاضرةٌ

أخبرَ تعالى عن التَّلازم بين الإيمانِ بالآخرةِ، والإيمانِ بالقرآنِ الكريم، فمَن آمَن بالآخرة؛ فإنَّه يؤمن بهذا الكتاب؛ لأنَّ "القرآنَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373 (بتصرّف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373.

يؤمن به مَن يدرك حقيقة الدَّين، وحقيقةُ الدِّين أن يعلم الإنسان أنَّه لم يُخلَق عبثًا، وأنَّ الحياةَ الآخرة، هي الحياةُ الباقية، وأنَّ الدُّنيا سبيل لها، وأنَّ نعيمها هو الباقي"[1].

وقد ذكر الفخرُ الرَّازيُّ أنَّ الإيمان بالآخرة جارٍ مجرى السَّببِ للإيمان بالرَّسول ﷺ ثمَّ ذكر ما يقرِّر هذه السَّببيَّةَ: "والعلماءُ ذكروا في تقريرِ هذه السَّببيَّة، وجوهًا: **الأوَّل**: أنَّ الَّذي يؤمن بالآخرة، هو الَّذي يؤمن بالوعدِ والوعيد، والثَّواب والعقابِ، ومن كان كذلك، فإنَّه يعظِّم رغبته في تحصيلِ الثَّواب، ورهبته عن حلول العقاب، ويبالغ في النَّظر والتَّأمُّل في دلائل التَّوحيد والنُّبوَّة، فيصِلُ إلى العلم والإيمان، **والثَّاني**: أنَّ دين محمَّدٍ ﷺ مبنيٌّ على الإيمان بالبعث والقيامة، وليس لأحدٍ من الأنبياءِ مبالغةٌ في تقرير هذه القاعدة مثل ما في شريعة محمَّد ﷺ فلهذا السَّببِ كان الإيمانُ بنبوَّة محمَّد ﷺ، وبصحَّة الآخرةِ أمرينِ متلازِمَيْنِ"[2].

ذكْرُ الإيمانِ بالبعثِ:

الإيمانُ بالآخرة، إنَّما هو ركنٌ واحدٌ من أركانِ الإيمان، فاكتفى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ بذكرِه من سائرِ تلك الأركانِ؛ "لأنَّ الإيمانَ بِهِ يستلزِم الإيمانَ ببقيها، ولإسماعِ كفَّارِ العربِ وغيرهم، ممَّن لا يؤمن بالبعث، أنَّ مَن آمَنَ بالبعث آمن بهذا الكتابِ، وأصل الدِّين خوفُ العاقبة، فمن خافها لم يَزَلْ به الخوفُ حتَّى يؤمنَ"[3].

الإيمانُ بالبعثِ والآخـــــرةِ، يستلزمُ الإيمانَ بأركـانِ الإيمـانِ الأخرى

دلالةُ الجملةِ الاسميَّةِ في قوله: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾:

عبَّرَ تعالى في قوله: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ عن صفةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2590، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/45.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/66، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/172، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/583.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/583.

المؤمنين بالجملة الاسميَّةِ؛ لتأكيد اتِّصافهم بما تضمَّنَتْه، فهم ثابتونَ على ذلك الوصفِ؛ إذِ الإخبارُ بالجملة الاسميَّةِ يؤكِّدُ مضمونَهَا لدلالتها على الثُّبوت، والمعنى المُعَبَّرُ عنه بالجملةِ الاسميَّةِ، أبلغُ وأثبتُ ممَّا لو عُبِّرَ عنه بالجملة الفعليَّة، ومعلوم أنَّ الصَّلاةَ هي مشروع العمرِ، وأنَّها تستغرق الزَّمن كلَّهُ، باللَّيل والنَّهارِ، والعشيِّ والإبكار، وهي الضَّمانُ للنَّجاةِ يوم القيامة، وذلك أنَّ أوَّلَ ما يُسألُ عنه المرءُ في يوم الحسابِ صلاتُه، فإن صَلَحتْ؛ صلحَ سائرُ عمله، وإن فَسَدتْ؛ فَسَدَ سائرُ عمله؛ لذلك كان التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، مؤدِّيًا للغاية، مفيدًا للمقصد الَّذي به يُفهم المعنى، وتُدركُ الدَّلالة.

المؤمنونَ ثابتونَ على صلاتِهم بالمحافظةِ الدَّؤوبة عليها

وجهُ تخصيصِ الصَّلاةِ بالذِّكر في قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾:

الإيمانُ بالآخرةِ يدلُّ على كلِّ الطَّاعات، وإنَّما خصَّ الصَّلاة بالذِّكر من سائرِ الطَّاعات قصدًا للتَّنبيهِ، "على أنَّ الصَّلاةَ أشرفُ العبادات بعد الإيمان بالله، وأعظمُها خطرًا، ألا ترى أنَّه لم يقع اسمُ الإيمانِ على شيءٍ من العباداتِ الظَّاهرة إلَّا على الصَّلاة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: 143]، أي: صلاتَكم، فلمَّا اختصَّتِ الصَّلاة بهذا النَّوع من التَّشريف لاجَرَمَ خصَّها الله بالذِّكر في هذا المقام"[1]، وفي ذلك ثناءٌ على المؤمنين، فالتَّصريح بكونهم يحافظون على صلاتهم يُؤْذِنُ "بكمال إيمانهم وصِدْقِه؛ إذ كانتِ الصَّلاةُ هي العمل المختصُّ بالمسلمين، فإنَّ الحجَّ كان يفعله المسلمون والمشركون"[2].

الصَّلاةُ سبيلُ كمالِ الإيمانِ، ووسيلةُ الفوزِ بالجنانِ

إيثارُ لفظِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ دونَ غيرِه:

أُوثِرَ التَّعبيرُ في قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بالمحافظةِ دون القيامِ أو الأداءِ؛ لأنَّ المحافظةَ على الصَّلاة عهدٌ بين العبد

المحافظةُ على الصَّلاةِ عَهْدٌ معَ اللهِ والتزامٌ مع النَّفْسِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/66، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/45، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/584، وأبو السعّود، إرشاد العقل السّليم: 3/163، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/193.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373.

وربِّه، فمن حافظ عليها، كان لما سواها أحفظَ، ومن ضيَّعها، كان لما سواها أَضْيَعَ، روى أبو داوودَ عن أَبي قَتادَةَ بنِ رِبْعِيٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال الله تعالى: إنِّي فرضتُ على أُمَّتِك خمس صلواتٍ، وعهِدْتُ عندي عهدًا: أنَّه مَنْ جاء يُحافِظُ عليهنَّ لوقتهنَّ؛ أَدخلْتُه الجنَّةَ، ومَنْ لم يُحافِظْ عليهنَّ؛ فلا عهدَ له عندي»[1].

وقد دأبَ القرآنُ الكريمُ على ذكْرِ تكاسُلِ المنافقين عن الصَّلاة، وفي مقابل ذلك "جعل المحافظةَ عليها عَلَمًا على الإيمان فقال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، أي: يحفظونها غايةَ الحفظ"[2]، فالمحافظةُ على الصَّلاة هي الفاصلُ بين صلاةِ المؤمنين، وصلاةِ المنافقين.

عِلَّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

في قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرورَ على الفعل للدَّلالةِ على التَّخصيص؛ وذلك "لبيان أنَّ اختصاص الصَّلاة بالمحافظة، يؤدِّي إلى كلِّ الخير"[3]، فقدَّم الجارَّ والمجرور المتضمِّنَ لفظَ الصَّلاة؛ للدَّلالة على أنَّ من يَخصُّون الصَّلاة بالمحافظة، إنَّما هم أهل الإيمان والصَّلاح.

تخصيصُ الصَّلاة بالمحافظةِ، من أهمِّ صفاتِ أهلِ الإيمانِ

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية الكريمةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أسلوبٌ نفيسٌ من أساليب الحذف في العربيَّة، وهو ما يسمَّى بالاحْتِباك[4]، فذكرُ "الإنذار والأمِّ أوَّلًا، دالًّا على حذفهما ثانيًا، وإثبات الإيمان والصَّلاة

بلاغةُ الحذفِ جمالٌ في الشَّكلِ، وانسجامٌ في المضمونِ

(1) أبو داود، سنن أبي داود، الحديث رقم: (415)، ويُنظر: عبد الرّؤوف المناويّ، فيض القدير: 4/637.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/188.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2590.
(4) الاحتباك: "القول المركَّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالث، كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أو ما كانت النسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسبين بأحدهما، ولقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك". يُنظر: أبو القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، ص: 195.

ثانيًا دليلٌ على نفيهما أوّلًا"[1]، فالمذكور أوَّلًا قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، والمذكور ثانيًا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فيكون المحذوف من المذكور أوَّلًا: (الّذين يكفرون بالآخرة لا يؤمنون به، وهم في صلاتهم مفرِّطون)؛ لدلالة الثَّاني عليه، والمحذوف من المذكور ثانيًا: (فيهم قابليَّة الإيمان من أهل أمِّ القرى ومن حولها)؛ لدلالة الأوَّل عليه، وتقدير الكلام: (لتنذرَ أمَّ القرى ومن حولها ممَّن لا يؤمنُ بالآخرة، فهم لا يؤمنون بالقرآن، وهم لصلاتهم مفرِّطون، والَّذين يؤمنون بالآخرة من أهل أمِّ القرى ومن حولها، يؤمنونَ به، وهم على صلاتهم يحافظون).

التَّقديمُ والتَّأخير وأثرهُ في التَّشابه اللَّفظيّ في آيَتَي الأنعام والأنبياء:

مواءمةُ السِّياق المبرَز في كلِّ آيةٍ، لتقديم صِفَتَي البركةِ والإنـزالِ أو تأخيرِهما

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، قدَّم فيه الإنزالَ على البركةِ، أمَّا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]، فقد قدَّم البركةَ على الإنزالِ، فما وَجْهُ ذلك؟ والجواب: في سورة الأنعامِ وقع الإنكارُ على الإنزال، فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ثمَّ كان الرَّدُّ عليهم بالسُّؤال عن الإنزال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ فلذا كان تقديمُ وصفهِ بالإنزال، آكَدَ من وصفِهِ بكونِه مباركًا؛ ولأنَّ ما أَنزل الله تعالى، فهو مباركٌ قطعًا، فصارتِ الصِّفةُ بكونِه مباركًا، كأنَّها صفةٌ مؤكِّدةٌ؛ إذ تضَمَّنها ما قبلها. أمَّا قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]؛ فليس هو في سياق الإنكار، بل جاء عَقِبَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: 48]؛ فذكر أنَّ الَّذي آتاه الرَّسولَ هو ذكرٌ مباركٌ[2]، فقدَّم صفةَ الإنزالِ في السِّياق الَّذي كان في شأن إنكارهِ من الكافرينَ، فقدَّمه لأنَّه أهمُّ للسِّياق.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/188.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.

وهذا الإيرادُ للأسلوب المتشابه لفظيًّا، يؤكِّد تصرُّفَ البيان القرآنيِّ في تقديمِ وتأخير مكوِّنات الجملة، وذلكَ حتَّى تتناسبَ مع جوِّ الفقرة الَّذي تنتمي إليها الجملةُ قيد التَّشابه. ولقد دلَّنا هذا التَّشابُه اللَّفظيُّ على خفايا في الدِّلالة، ومعانٍ عميقةٍ في اختيار هذا المعنى أو ذاك؛ لتأكيد انطواءِ القرآنِ على إعجازٍ بديعٍ، لا تحتفي به إلَّا العقولُ المبدِعة، والقرائحُ المسعِفة، لتثويرِ القرآن الكريم، واستخراجِ دُررِهِ الكامنة، في أحشاءِ بحره الطَّامي، وعُبابِهِ المترامي، وتذوُّق ذلك وفقًا لقواعد اللِّسان، وعِبَرِ الزَّمان، وحكمةِ اللّه في بدائع الصُّنع في الأكوانِ، وهو ما يقتضيه النَّظرُ إلى المتشابهِ اللَّفظيِّ في كلِّ القرآنِ.

الوصلُ والفصلُ في المتشابهِ اللَّفظيِّ في آيتَي الأنعام والشُّورى:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فيه تشابهٌ مع قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشّورى: 7]، لمَ خَصَّ النَّظمُ الشَّريفُ كلَّ آيةٍ بما فيها من الوصل أو الفصل؟ ولمَ خصَّ آيةَ الشُّورى بقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ دون آيةِ الأنعام؟ والجواب: أمَّا الفصلُ والوصل؛ فإنَّ آية الأنعام بدأت بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ فلمَّا أريدَ الجمعُ بين ما سبق والإنذارِ ناسبه الوصلُ بالواو، ولمّا لم يتقدَّمْ ذكْرٌ ليوم القيامة؛ ناسبهُ الاكتفاءُ بقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. أمَّا آيةُ الشُّورى؛ فقد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، فلمَّا كانت الصِّلةُ شديدةً بين السَّبب والمسبِّب وهو التَّنزيلُ والإنذارُ؛ ناسَبَه الفصلُ فقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

يُـؤْثِـرُ الـوصـلُ عند إرادة الرَّبطِ بـيـن لاحـقِ المعنى وسابقِه، والـفـصـلُ بالعكسِ

والسُّؤالُ: لمَ خُصَّت آيةُ الشُّورى بقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشّورى: 7]؟ والجوابُ: أنَّهُ قد سبق قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟

تـخـصـيـص السِّـيـاق بـآيـةِ تـربـطُ الإنـذارَ بواقعِ التَّصرُّفاتِ المحصاةِ عليهم

مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ [الشورى: 6] وذلك يدلُّ على أنَّ الله تعالى "يحصي عليهم أفعالَهم، ويحفظُ أعمالَهم؛ ليجازيَهم بها يوم القيامة جزاءهم"[1]، فذلك يناسب التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [الشورى: 7].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإنذار) و(الإعلام):

الإنذار: "إعلامٌ معه تخويفٌ، فكلُّ مُنْذِرٍ مُعْلِمٌ، وليس بالعكس"[2].

الإنـذارُ إعـلامٌ معـهُ تخويفٌ، فهو إعلامٌ خاصٌّ

فالإنذار إعلام خاصٌّ، والإعلام عامٌّ، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾، عَبَّرَ بالإنْذارِ دونَ غيرِه؛ لأنَّه أرادَ أن يُعْلِمَ النَّاسَ بالتَّرهيبِ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، والعذابِ الَّذي يجازَى به العُصاةُ.

(الإنذار) و(التّخويف):

الإنـذارُ تخويفٌ خـاصٌّ ومعـلنٌ والتَّخويفُ فعلٌ عامٌّ

"الإنذارُ تخويفٌ مع إعلامٍ موضعِ المخافةِ ومصدرِها مِن قولِك: نَذِرْتُ بالشَّيءِ؛ إذا علمْتَهُ، فاستعددْتَ لهُ، فإذا خوَّف الانسانُ غيرَه، وأعلمه حال ما يخوِّفه به؛ فقد أَنذَرهُ، وإنْ لم يُعْلِمْهُ ذلك لم يقلْ: أنذرهُ"[3]. فالفرق بين الإنذارِ والتَّخويف: هو الإعلامُ، فالإنذار: إعلامٌ يصحبه تخويفٌ، والتَّخويفُ: أعمُّ من أن يكونَ بالإعلام، فقد يكون بالفعل، وفي الآية عبَّرَ بالإنذارِ؛ لأنَّه أنسبُ لمقام الدَّعوةِ بالقرآن، فهو إنذارٌ بالتَّرهيبِ.

ومن ذلك الإنْذارِ بالتَّخويفِ: ما ألمح السِّياقُ القرآنيُّ إليه في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ [الأنبياء: 45]، ووظيفةُ الرَّسولِ الأكرمِ هي الإنذارُ والتَّخويفُ، وأنَّه بُعث للإنذارِ مع البشارَةِ، وقد قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمَا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/502.
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 78.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 78.

نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴿٤٦﴾ [القصص: 46]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٢﴾﴾ [الأعراف: 2]، وقوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشّورى: 7]، واستهزاؤهم بِنِذارَتِهِ لا يمنعُه من البلاغ كما أمره اللّه؛ إذ عليه أن يسعى ويعالجَ، وليسَ عليه إدراكُ النَّتائجِ، ومعلومٌ أنَّ الإنذارَ بالوعيد، والتَّخويفَ من عذابِ اللّه الشَّديد، لا ينتفع به غيرُ أصحابِ الإيمان، من ذوي القلوبِ المُخْبِتَةِ المُنيبةِ إلى اللّه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»